القسم الخامس

المتفلسفــون باسم الإســلام

أدعياء على الإسلام

الفصل الأول

اليقين العلمي في دعوة القرآن الكريم

ينقض نسبة التفلسف إلى الإسلام

هل كانت هناك حقًا «فلسفة» يمكن أن ننسبها إلى الإسلام، وأن نعطيها ونحن جادون صفة «الفلسفة الإسلامية» من هذه المذاهب الفلسفية المنحرفة عن الإسلام باسم الإسلام؟

وبعبارة أخرى هل يمكن لهؤلاء المفكرين – في عصر الشيوع والصراع الشعوبي ضد الحكم العربي – من الذين اتخذوا من المنطق اليوناني، والهوى الفارسي، منهجًا للتفكير، وآلة للجدل، وطريقًا لمحاربة العرب، أن يسيروا بتفلسفهم على طريق مستقيم مع مصادر الإسلام ومحكماته في القرآن وأسوة الرسول؟

الجواب الواضح هو نفي أي تشابه، أو تقارب، بين «اليقين العلمي» في دعوة القرآن الكريم إلى الدين الحق، والإسلام الخاص، وبين «الظن الفلسفي» الذي هو بداية ونهاية أي «عمل فكري» لهؤلاء المتفلسفين، في أي عصر، ونحو أي اتجاه، كما قدمنا الأدلة العلمية، والعقلية، والتاريخية، على ذلك فيما سبق. ونبدأ هنا تقديم الحجة على صحة الجواب برفض هذا الادعاء الباطل باحتمال وجود أية «فلسفة» يصح انتسابها في الماضي، أو في الحاضر، أو في المستقبل، للإسلام، مستعرضين في هذه البداية، وبإيجاز نشأة «علم الكلام» المقابل للمنطق بمفهوم الاصطلاح الفلسفي اليوناني، وهو أول ما تردى المعتزلة في متاهاته، وفي اختلاس سفسطته، منزلقين على منحدره إلى هاوية المحنة التي تورطوا وغرقوا فيها، وهي الزعم الذي أصروا عليه آثمين، ومدلسين، ومتفلسفين، على أيام المأمون، والمعتصم والواثق، بأن «القرآن مخلوق»!!

يقول المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق جامعة القاهرة في كتابه «المذاهب الإسلامية» وهو يتحدث عن

جذور التفلسف الغريب عن مصادر الدين، والمتناقض مع منهج الإسلام وفكر المسلمين:

«في آخر العصر الأموي والعصر العباسي[1] توردت على العقل العربي: الفلسفة الهندية، والفلسفة اليونانية عن طريق الفرس، لأن الثقافة الفارسية قبل الإسلام كانت متأثرة بالفلسفة اليونانية، كما جاءت عن طريق السريان لأنهم قد ورثوا الفلسفة اليونانية وألبسوها لبوسهم الديني ومسوحهم اللاهوتي وعن طريق اليونان أنفسهم، لأن بعض الموالي المسلمين كان يجيد اليونانية. وقد تأثر المعتزلة بهذه الفلسفة في آرائهم، وأخذوا عنها كثيرًا في استدلالهم، فظهرت في أدلتهم وأقيستهم».

ثم يقول الشيخ أبو زهرة:

«ظهر المعتزلة في العصر الأموي فلم يجدوا من الأمويين معارضة لهم، لأنهم لم يثيروا شغبًا عليهم ولا حربًا.. ولما جاءت الدولة العباسية وقد طم سيل الإلحاد والزندقة وجد خلفاؤها في «المعتزلة» سيفًا مسلولا على الزنادقة فلم يفلوه، بل شجعوهم على الاستمرار في نهجهم، فلما جاء المأمون، وقد كان يعتبر نفسه من علماء المعتزلة، شايعهم وقربهم وأدناهم، وجعل منهم حجابه ووزراءه»[2]

ثم يقول على نفس الطريق الذي يؤرخ للتردي الذي سقط به المعتزلة وراء ظنون وخيلاء التفلسف:

«وقد شن الفقهاء والمحدثون الغارة على المعتزلة، فكانوا بين عدوين كلاهما قوي: الزنادقة والمشبهة والمجسمة من على شاكلتهم، ثم الفقهاء

---

(1) «المذاهب الإسلامية» للدكتور الشيخ محمد أبو زهرة صفحة 217.

(2) صفحة 219 نفس المصدر.

والمحدثون من ناحية أخرى، وإنك لترى في مجادلات الفقهاء والمحدثين تشنيعًا على المعتزلة كلما لاحت لهم بارقة. وإذا سمعت «الشافعي» و«ابن حنبل» يذمان «علم الكلام» ومن يأخذ العلم على طريقة «المتكلمين» فإنما «المعتزلة» وطريقتهم أرادوا بذمهما»[1].

ثم يقول كاشفًا عن هاوية الخلاف بين السلف والمعتزلة حول تفلسفهم في فهم الدين:

«ولكن ما السر في كراهية الفقهاء والمحدثين لهم حتى قبل المحنة التي أنزلها المأمون تأييدًا لآرائهم؟.. بعض هذه الأسئلة أن المعتزلة خالفوا طريقة السلف في فهم العقائد. لقد كان القرآن الكريم هو الورد المورود عند السلف، يلجأ إليه وإلى السنة كل من يريد معرفة ما يجب الإيمان به، لا يصدرون عن غيره، ولا يطمئنون لسواه، كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب، وهي بينات، وما اشتبه عليهم حاولوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء، وإن تعذر عليهم توقفوا، وفوضوا الأمور لله غير مبتغين فتنة، ولا راغبين في زيغ، وكان ذلك ملائمًا للعرب لأنهم في أصالتهم ليسوا أهل منطق ولا فلسفة، فلما اتسعت علوم الفلسفة جاء المعتزلة وخالفوا ذلك النهج».

ويصل الشيخ أبو زهرة بعد إسهاب في تاريخ المعتزلة إلى بداية محنتهم بالتفلسف في فتنتهم بالزعم بخلق القرآن فيقول:

«وقد اقترنت مسألة «خلق القرآن» بتاريخ المعتزلة، فما ذكروا إلا سبقت إلى الذهن تلك المسألة، لأنهم أثاروها في العصر العباسي، وبرأيهم حاول الخليفة العباسي حمل الفقهاء والمحدثين على القول بها، ونزل ببعض

---

(1) صفحة 221 نفس المصدر.

أولئك الفقهاء ما نزل من شدائد. وقد شغلت أفكار الناس في عصور ثلاثة من خلفاء بني العباس، المأمون والمعتصم والواثق، اضطربت فيها النفوس، وأزهقت فيها حرية العقيدة، وأوذي المتورعون في ألفاظهم، المتوقفون في علمهم عند حدود النصوص إيذاء شديداً، ولا ذنب لهم إلا العكوف على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم خشية أن يضلوا في نزعات الفكر، وزيغ العقول..».

ثم يقول الشيخ أبو زهرة[1]:

«وكان ابتداء الخوض الشديد في هذه المسألة في عهد الرشيد، ولم يكن ممن يشجعون الخوض في العقائد والجدل فيها على ضوء أقوال الفلاسفة، بل يروى أنه حبس طائفة من المجادلين في العقائد ومنهم «المعتزلة» ولذلك لم يشجع الكلام في شأن القرآن: أهو مخلوق أم غير مخلوق..».

ثم يقول بعد أن تناول أسباب تقريب المأمون للمعتزلة وهو بعجمته من زعمائهم:

«ولكن في سنة 218 هجرية وهي السنة التي توفى فيها بدا له بوسوسة أهل الاعتزال[2] أن يدعو الناس بقوة السلطان إلى اعتناق القول بخلق القرآن، بل أراد أن يحملهم على ذلك قهراً وغلبة..».

ثم يقول عن إيقاع هذا الجور بأئمة الفقهاء الذين أبوا على قدر جهدهم أن ينزلقوا إلى محنة فهم الدين، وتدبر القرآن المبين، بالتفلسف:

---

(1) صفحة 248 من نفس المصدر.

(2) صفحة 251 من نفس المصدر.

«ولكن أربعة ربط الله على قلوبهم، واطمأنوا إلى حكم الله في أمرهم، فأصروا على موقفهم إصرارًا جريئًا، وهم أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح والقواويري، وسجادة، فشدوا في الوثاق، وكبلوا بالحديد، وباتوا ليلهم مصفدين في الأغلال.. وقد استمر في البلاء أحمد بن حنبل، ومزق جسمه بالسياط، وهو راض بالبلاء، غير مستهين بعقيدته، واستمر في الحبس نحو ثمانية عشر شهرًا، حتى استيأسوا منه وعلموا أنه لا يجيب..».

ثم يمضي الشيخ أبو زهرة في قصة المحنة بالتفلسف باسم الإسلام إلى غايتها فيقول:

«ولم تكن الفتنة في عهد الواثق – بعد المأمون والمعتصم – مقصورة على الإمام أحمد، بل تجاوزته إلى غيره. فقد كان فقهاء الأمصار يساقون إلى بغداد ليختبروا في هذه المسألة، ويفتش عن خبايا قلوبهم، وكان منهم يوسف بن يحيى البويطي الفقيه المصري صاحب الإمام الشافعي، فقد دعى إلى القول بما يقولون فامتنع، فحمل مقيدًا مغلولا حتى مات في اصفاده، محتسبا ذلك عند ربه».

ثم يقول الشيخ أبو زهرة – رحمه الله – أخيرًا:

«في هذه الفتنة الصماء، التي خفت فيها صوت الحكمة، وفي هذه الشدة التي سكت فيها صوت الرحمة، عاش العلماء سنين. وكان التورع عن الخوض إثمًا كبيرًا لا يعذر فيه مؤمن لسابق عمل أو إصلاح.. وقد تفاقم الخطب، واستمرت البلوى، حتى سئم الناس هذا الحال، بل حتى سئمها القائمون بها، وحتى صارت هزلا لدى بعض الناس، فإنه يروى أنه دخل على «الواثق» مضحك له اسمه (عبادة) فقال: «يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن!» فقال الواثق: «ويلك.. القرآن يموت!؟».. قال مضحكه: «يا أمير المؤمنين كل «مخلوق» يموت.. بالله يا أمير المؤمنين من

يصل بالناس التراويح إذا مات القرآن؟!» فضحك «الواثق» وقال: «قاتلك الله.. أمسك!»».

وهذا هو وجه واحد من وجود «الاعتزال» عن الحق بالتفلسف فيه، عرضناه مع الإيجاز صورة لما هو أدهى منه في تفلسف المذاهب التي انحرفت عن الإسلام على جملة وجوه من الفلسفات الهندية والفارسية واليونانية والصهيونية تحت أمثال ما شاع من مللها ونحلها في «البابكية» و«الإسماعيلية» و«السبئية»، و«الكيمانية» و«الإمامية» و(الاثنى عشرية» و«الجبرية».

ثم نقول: إن البلاء الذي علق بالأمة العربية، بعد هذا الفصام الحادث عليها في هويتها، وحقيقتها، بينها وبين لسانها العربي، وعقلها العربي، لا يزال يهددها بالفناء، لولا هذا القرآن الكريم، الحافظ لمقوماتها، وفي اليقين بقرب استعادتها صحوتها، وصحة عقيدتها، وقوة وحدتها. إن هذا البلاء لم يعلق بها، ولم ينشب أظفاره وأنيابه في مقومات حياتها، وإلا بتسرب هذه الوساوس الفلسفية إلى ألسنتها، ومفهوماتها، والعادات المطبقة بأثقال أعدائها على صدرها، حتى أصبح القرآن.. مع ارتفاع صورته في أرجائها، ودلالات نوره على وجوهها، مهجورًا منها في التدبر، وفي صحة الإيمان، وفي الالتزام بالشرع، وفي التمكن بذخائره من حقائق الإيمان والعلم على صهوة الاجتهاد، سباقًا وسبقًا بالدين الحق فوق تحديات العصر، ونحو آماله ودون الانحراف عن مشرق مبادئها وغاياتها به، وفيه..

ويكفي للدلالة على هذا البلاء الناخر وراء العديد والواهن من الفلسفات الغابرة أو المعاصرة، باسم الإسلام، أو حربًا صريحة على الإسلام، أن هذه الفتنة التي التصقت بتاريخ المعتزلة في تفلسفهم بادعاء «خلق القرآن» لم تجد حتى اليوم ردًا إسلاميًا عقليًا وجليًا لدحض هذا الادعاء، دحضًا يقوم برهاته العلمي اليقيني والديني على بينات القرآن الكريم في آياته ومحكماته. فالموقف السائد إلى اليوم بين المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة، والمتنزهين عن التفلسف العليل، وفتنة التأويل، لا يزال هو وقف «التورع عن الخوض»

حقا.. لقد تورع المسلمون الأوائل عن الخوض في المتشابه، كما أمرهم الله – تنزهًا عن الفتنة، وحذرًا من التردي فيها بالتأويل، ولكن لو تصورنا – ما لم يقع – وهو أن مفتونًا من أمثال المعتزلة قد لقى جمعًا من هؤلاء الراشدين الأوائل، المستبينين للمحكم من كتاب الله، والملتزمين به، والمتورعين عن الخوض في غيره، فطرح عليهم فتنته بالسؤال عن القرآن الكريم «أمخلوق هو.. أم غير مخلوق؟».. فهل يكون جوابه الصمت.. أو إعلان التورع عن الخوض في هذا التشابه، أو المبادرة – وهم أهل العلم واليقين إلى برهان الله إليهم ليدحضوا به وساوس هذه الفتنة، ويردوها على أصحابها بالإحباط والقمع؟

لا نعتقد إلا أنهم كانوا – كما فعلوا في مواجهة المرتدين والمتنبئين في خلافة أبي بكر، وبعد وفاة الرسول التي استغلتها القوى المعادية للإسلام من الفرس.. سيبادرون إلى قمع هذه الفتنة الفلسفية بما بين أيديهم من حجة الله وآياته وبيناته إليهم في القرآن الكريم.

على أن أحمد بن حنبل الذي احتمل صابرًا أذى الخلفاء العباسيين المارقين عن الصراط المستقيم، وأذى كهانهم من المعتزلة والحاشية، تدبر قبل موته جوابًا شافيًا يواجه به المؤمن هذه الفتنة بالفلسفة فيقمعها بالبرهان من علم الدين ونسوق هنا ما ورد من رأيه هذا في الحلقة الأخيرة من سيرته كما كتبها عبد الرحمن الشرقاوي في جريدة الأهرام في الثاني عشر من ذي الحجة سنة 1399 الموافق 2 من نوفمبر سنة 1979.. وذلك حيث يقول:

«على أن الإمام أحمد بن حنبل تدبر قبل موته رأيه في خلق القرآن، فذهب إلى أن من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر، ومن زعم أنه غير مخلوق فهو مبتدع. فالقرآن بحروفه ومعانيه هو كلام الله غير مخلوق، وهو من علم الله، وعلمه غير خلقه. فالقرآن غير مخلوق، ولكنه حادث بحدوث التكلم عن الله».

وهذا الجواب من الفقيه المجاهد أحمد بن حنبل يقترب من الصواب ولكنه لا يجليه، ولا يبلغ القول الفصل فيه، ولولا أن الجواب عن هذه «الشبهة» وهي واحدة من آلاف الشبهات التي افتعلها أعداء الإسلام والمتفلسفين فيه لشغل وتفريق المسلمين – ليس من أهداف هذا الكتاب، الذي نتعرض به في مستهل صحوة المسلمين إلى التذكير وشد الأواصر إلى

المقومات والأصول الإسلامية، وليس الجدل المتفرع عن هذه الأصول.. لولا هذا لكتبنا فصلا قائمًا بذاته لاختراق وساوس هذا التحدي الفلسفي بالتنوير على جميع الجوانب التي تنتشر منها ظلال باطله، ليبطل هذا الكيد، ويزهق هذا الباطل.

ونكتفي هنا بإيجاز أساس النظرة الصحيحة لتطويق هذه الشبهة، وتحديد وجهة الجواب الكاشف لها ببرهان علم الدين، بما يفتح الطريق بغير تأويل، وبغير تفلسف، إلى مزيد من العلم بهذا الفضل العظيم لله حين تنزل وحيه بهذا الكتاب – الذي أنبأ عن حفظه – على رسول الله هو أفضل الرسل وخاتمهم، وبلسان هو أفضل الألسنة وأبقاها، وذلك حتى يبقى ذكر الله الواحد به، ويبقى نوره، ومعها برهان الدين الحق، والإسلام الخالص، ما بقيت الحياة.

البداية في هذا الجواب الموجز أننا عندما نصف القرآن الكريم بوجه عام من جهة أنه كلام الله الذي ينطق به الإنسان نقول إنه «كلام الخالق بلسان المخلوق».. فهل معنى هذا كما قصد المعتزلة بتفلسفهم وقصور إدراكهم، وعجمتهم، أنه «كلام الله الخالق خلقه بلسان المخلوق حتى ينطق به»؟

إن المعنى الواضح، والميسر لذوي العقول، ينقض هذا الفهم المبتذل، كما ينقض أن يتصور أحد الحمقى أن العصا المخلوقة بيد موسى هي مصدر الآيات التي أيده الله بها وليست «قدرة الله» التي هي صفة من صفات ذاته الخالقة، المسيطرة على العصا المخلوقة، وكما ينقض أن

يتصور أحمق آخر أن يد المسيح المخلوق وكلماته هي التي أحيت الموتى، وصنع الآيات، وليست «قدرة الله» الذي هو وحده المحيي، وإن كان من طريق رسول الله مخلوق من عباده هو المسيح عليه السلام.

فكلام الله في القرآن الكريم هو من علم الله الأزلي الذي لا يعرض له الخلق، وقد أنزله بالآية الكبرى من آياته على خاتم رسله بمشيئته، أي بأمره الذي هو من صفات ذاته كذلك فلا يعرض لها الخلق، وقد أنزل سبحانه هذا العلم، بهذه المشيئة، بلسان الإنسان الذي قضى أن يهديه إليه، حتى يهتدي به، دون أن يكون هو كلام الإنسان، وإن أخذ هيأته وصوته، بل هو كلام الله.

يقول الله في بيان هذا الحق: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ * عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ * خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ «أول سورة الرحمن»

معنى «علم القرآن» أن هذا الكتاب من علم الله الأزلي، وأنه سابق لخلق الإنسان في ترتيب هذه الآيات، وأن الله عندما قضى وساء أن يخلق الإنسان قضى وشاء

ومرة أخرى نقول إن نزول هذا القرآن بلسان البشر بلسان عربي مبين ليهتدوا به لا يعني أبدًا أن الله «خلق علمه» بلسان المخلوق، فكان هذا القرآن «المخلوق» بلسان عربي مبين، نشير إلى ما هو معلوم من أن الله الرحمن أنزل هذا القرآن علمًا من علمه، ونورًا من نوره، وبمشيئته وأمره،

فوق مستوى أن يأتي الخلق بمثله – إنسًا أو جنًا – مهما كان بيانهم، ومهما كان اللسان لسانهم، وقد كان هذا النور الباهر لتجلي علم الله ونوره ورحمته في القرآن هو أول ما أضاءت به عقول أئمة البيان العربي «المخلوق» من شيوخ قريش، الذين غمرهم وهم يرهفون السمع إليه، إشراق الله عليهم فيه، على آفاق حروفه، ومثانيه، وكلماته، بغير حدود لعلمه، ولا توقف لمشيئته، ولا أفوق لنوره.

إذن فكلام الله في القرآن الكريم كما يتجلى الله به فيه ليس «مخلوقا»، وإن ظهر بهيئة أصوات المخلوقين، كما أن إحياء الموتى بكلمات عيسى ابن مريم كان بقدرة الله المحيي، وإن ظهر في أعقاب كلمات المسيح. وفي بيان هذا المعنى وتأكيده، وهو أن الله يتجلى بعلمه ومشيئته في القرآن الكريم من خلال أصوات وكلمات ينطق بمثلها بعض البشر يقول تعالى عن تأثير هذا القرآن بتجلي الله في على قلوب المؤمنين المقتربين إليه باللسان العربي المبين:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾

[الحشر: آية 21]

﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾[الأعراف:143]

ويقول الله تعالى أيضًا وهو يصف كلامه في القرآن الكريم بما لا يكون إلى من تجليه بصفاته فيه، حتى وإن كان منطوقًا بلسان المخلوقين:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [الزمر:23].

فكيف يكون هذا القرآن أن يستمع المتدبرون له وكأن الله يتجلى من خلاله عليهم، فتسجد قلوبهم للذكر، وتقشعر جلودهم من خشية غضبه.. كيف يكون كلامًا مخلوقا، حتى وإن نطقوا به بألسنتهم؟!

من أجل ذلك علم الله البيان لهذه الأمة من العرب، مصطفيا إياهم في حياتهم القاسية بجزيرتهم لهذه النعمة الوافرة، وهي نعمة البيان التي لا يضلون بها التمييز بين كلامهم المخلوق دون كلام الله، وبين كلام الله الأزلي بعلمه، ومن علمه، وبمشيئته، حتى وإن نطقوا بلسانهم به أو بعبارة أدق: حتى وإن عبروا من هيئة كلامهم المخلوق إلى علم الله وأمره ونوره في «كلام الله» وهو يتجلى عليهم به في كتابه.

نعم.. ومن أجل ذلك أيضا، وبعد حياة إبراهيم وإسماعيل وإقامة بيت الله في مكة، نزل هذا القرآن على خاتم النبيين والمرسلين، إلى هؤلاء الذين أقام الله لهم المسجد الحرام في مركز القلب السليم النابض في قلب العالم، ليكون المنارة المرفوعة للبشر بالدعوة للهدى في قلب جزيرة العرب، بعد أن بسط لهم من الزرق المقترن بالحركة الدائبة في الرعي والتجارة، بما جمع لهم به من تكامل الحق والعلم في لغة الدنيا والدين. وهم يعقلون بها البرهان على رب العالمين، واليقين يوم الحساب والدين.

لقد أنزل الله هذا القرآن وهو من علمه الذي لا ينتهي، ومن نوره الذي لا يأفل، على هؤلاء المعربين المستبينين، الذين قضوا حول بيت الله بعد إبراهيم وإسماعيل نحو خمسة وعشرين قرنًا، ينمون البيان في

ألسنتهم، ويصححون العقل في عقولهم، باتساق المرئي والمسموع في رؤيتهم، وتكامل الدلالة على الدنيوي والأخروي معًا في معانيهم، وبذلك صحت لهم هذه النعم التي لم تصح لغيرهم، والتي تمت بها نعمة اصطفائهم لأمانة هذا الدين والدعوة له على من سواهم.

لقد صحت لهم أولا نعمة «الحرية».. حرية الإرادة وحرية التعبير.. وإلا فبغير هذه الحرية كيف يؤمن بالله، ليكون عبدًا صالحًا لله، من سبقت عليه العبودية لسواه؟!

ولقد صحت لهم بهذه الحرية ثانيًا نعمة «الحركة في هذا البداء المضيء» الذي فتحه الله بسماواته وآفاقه ليسيروا فيه وراء الماء والرعي، ومع الطرق والتجارة، ويتفكروا، وليعقلوا هذا الاتساق في الخلق بغير تفاوت أو فطور.. وينتبهوا.

ولقد صحت لهم بنعمة هذه الحركة الحرة، ومع طول التفكير في خلق السماوات والأرض، نعمة هذا البرهان المشرق على الله الواحد الأحد، الرحمن الرحيم الذي عرفوه فوق معرفة غيرهم، وقبل معرفة غيرهم، باسمه وصفاته، بعد أن صحت فطرتهم السوية بكل هذه النعم إليه، فآمن المهتدون برسله، وسجدوا له.

وعندما تكاملت لهم مع هذه النعم نعمة البيان العربي السوي في مشرق بعثة النبي الكريم، خاتم النبيين، وأفضل المرسلين، وتم أمر الله الرحمن بأن «يعلم البيان» لهم بعد أن قضى بأن «يعلم القرآن» للإنسان، نزل الوحي بكلام الله على رسول الله، بهذا اللسان العربي المبين، على هؤلاء الذين تكاملت فيهم نعمه، وعلى رأسها بيانهم عنه، وبرهانهم عليه، وحبهم وعبوديتهم له، فأقبلوا على الله بإقبالهم على كلامه، يستمعون إليه وهو على هيئة كلامهم، ولكنه ليس من كلامهم، ليعبروا من هيئة

كلامهم القابل للتغير إلى ما يتجلى الله به في كلامه – الذي ليس من كلامهم – من علمه ونوره، ومن نذيره وبشيره، حاملا في ترتيله وتفصيله مالا يتغير من صفات الله، ومالا شبيه له في خلق الله، وما لا قدرة على مثله لأحد سواه.. وبذلك سجد له المؤمنون الذين تدبروا كلامه باللسان العربي المبين، خاشعين مخبتين، وأخبتوا له صادقين مصدقين، وهم يعبرون من كلامهم إلى كلامه بهذا المدخل الكريم الذي فتحه الله بينهم وبين آيته العظمى وهو «بسم الله الرحمن الرحيم» أي إنه ما من مؤمن متدبر خاضع مستبين ينطق بكلام الله إلا مأذونًا بهذا النطق «باسم الله» لأن كلامه في القرآن الكريم ليس من كلام البشر، وإنما هو كلام الله، الذي يتجلى الله فيه بعلمه وأزليته، وبنوره ورحمته، وبمشيئته وصفاته، على المؤمنين المبينين من عباده.

فأين هذه النعم من الحرية والحركة، ومن العقل والبرهان، ومن البيان والإيمان، كما أتم الله بها نعمته بتمام نزول القرآن على قوم الرسول، وما كان بعدها من خروجهم بهذه النعمة على الناس، إشراقًا بالحق المبين، ورحمة للعالمين.. أين هذه النعم من مذلات.. ومهانات.. وفلسفات المعتزلة وأشباههم، حتى يقولوا في القرآن الكريم بالقول الحق، بعد أن أهلكتهم العجمة، وأثقلتهم الخطايا، ومسختهم العبوديات لغير الله، فأتموا هذا الإثم الذي لحقوا فيه باليهود عندما تفلسفوا فحرقوا فيما نزل من الله إليهم: وعندما تفلسف الكافرون منهم في «المدينة» فلغوا في القرآن الذي أبطل الله كيدهم به، وأخزى باطلهم من بعده.

كذلك فقد لحق بالمعتزلة وفتنتهم الأعجمية، وبالمارقين من اليهود وفتنتهم العنصرية الصهيونية، كثيرون ممن لعبت بأمانيهم الأهواء، وسيطرت على أهوائهم الجهالات والعداوات، فقالوا في القرآن الكريم –

حتى بين متفلسفة المسلمين – ما مسخهم الله به، بعد أن أغراهم عليه طول تخلف المسلمين وتفرقهم من حوله، وبعد أن نشطت في هذا العصر – ومعها أدوات تدميرها وتدمير العالم – هذه الفلسفات المذهبية من الشيوعية الإلحادية إلى الرأسمالية اللادينية، وطمعها في القضاء المبرم على الإسلام والمسلمين، ابتداء من العرب وقرآن الله المبين، فلغوا بمستشرقيهم في هذا الكتاب الكريم.

ولكن ليتهم يعلمون حين يصحو المسلمون – وقد صحوا – إلى هذا القرآن المبين.. أن أعداء القرآن والإسلام والدين في الأذلين.. وأن هؤلاء وقد ظلموا سيرون عاجلا أي منقلب ينقلبون، بينما يبلغ المسلمون بصحوتهم علم اليقين، وحق اليقين، وأمن المؤمنين، ونصر المجاهدين، إن شاء الله رب العالمين، إذا ما ذكروا لسانهم العربي المبين، الذي يتدبرون به القرآن، ويقبلون معه على الإيمان كما جاء في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:193- 195].

نعم.. بلسان عربي مبين.. حيث يتجلى الله من آفاق كمال حروفه وكلماته هدى للمؤمنين، ورحمة للعالمين.

الفصل الثاني

الإمام الشافعي والمنهج القرآني

وأضواء على العجمة والشتات الغنوصي

في هذا الفصل نعود فنشير مرة أخرى إلى ما سبق أن ذكرناه في الفصل الخامس من القسم الثاني عن العلم في لغة القرآن فنقول إن الإنسان منذ أظهره الله على هذه الأرض يتحرك باتجاه المجهول المعلوم على طريقين: الصحيح والفطري منهما وهو الاستهداء إلى الله الحق بالبرهان الحسي عليه دون الإحاطة به، والباطل منهما وهو الفتنة بإمكان الإحاطة بغيب الخالق، وتصور القدرة على استحضاره بذاته وإزالة كل الحجب عنه.

أما أهل الفطرة السوية، والدين الحق، الذين يتحركون بعقلهم المفتوح ليتدبروا آيات الله في الواقع الحي، والمضيء، والمتحرك من حولهم، وهو الواقع الذي يشهد باتساق متغيراته، وتكامل إيقاعه، على وحدانية الخالق المدبر، والحكيم العليم، فهؤلاء قد عقلوا أن العلم الكاشف للحقيقة، والمضيء لما وراء الغيب؛ هو علم يبقى محدودًا بما ينفع الإنسان في حدود قدرته على تخطي عقبات ابتلائه بأمانة الدين فوق هذه الأرض. إنه علم ينفع الله المؤمنين به، وقد أتاحه سبحانه لكل البشر ليظهر لهم وراء تطلع حواسهم وعقولهم حاملا إليهم حكمة الله في خلقهم، **واضحة وجلية لعقولهم في دلالتين:**

* الأولى حين يظهر هذا العلم بالمشهود من الخلق مرتبطًا بما يصلح الإنسان في سعيه وعيشه، وتثبيت رؤيته، ودعم أمنه وسلامه بدنًا وعقلا. وذلك حيث تظهر هذه الأرض وما عليها وما حولها مسخرة برحمة الله للإنسان، ليهتدي بها إليه، ولتكون موضع امتحانه في دنياه بعمله.

** وأما الدلالة الأخرى فتتجرد بها الحقيقة العلمية من ظروف الإنسان الموجبة لأمنه واستقراره لتتحرك معبرة له عن حركة الخلق المحيط به في مجموعه وإلى غايته، منبئة بقدر ما يدرك من قوانينها عن بعض ما

يتبدى له من حكمة الله بهذا الخلق، وهو ينطلق إلى غايته في علم الله.. ومعه الإنسان.

إن العلم بما وراء هذه الحقيقة المشهودة، وهو العلم المحدود بقدرة الإنسان المخلوق تجاه الله الخالق، يجمع بهاتين الدلالتين طرفي الحقيقة العلمية المتاحة له في صدق دلالتها على الله الحق، وهما الطرفان المتكاملان في إشارتهما الدائمة إلى الزائل والدائم، والدنيوي والأخروي، والبشري والإلهي.. في حياة الإنسان.

وهكذا.. بهاتين الدلالتين معًا تكلم القرآن الكريم إلى الإنسان عن الأرض التي بسطها الله له، وجعلها بالهدوء والسكون الظاهرين له – فوق غيب حركتها ودورانها حول الشمس – قرارًا مستقرًا لحركته ودورانه.. كما تكلم القرآن إليه مرة أخرى عن هذه الدلالة الأخرى على العلم، وهو يبين له من قدرة الله وحكمته البعيدة في الخلق، كيف جعل الأرض كروية، ومتحركة، وهي تسبح في فلكها مع الشمس والقمر إلى مستقر لها وغاية محققة في حكمة الله.

يقول الله سبحانه للإنسان وهو يجعل مدخل علمه به أن يدرك يعقله وفطرته مدى رحمته به:

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ [نوح: 19].

ويقول تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: 18].

ويقول سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الحجر: 19].

فصورة الأرض المبسوطة، والممتدة، والمفروشة الممهدة، والمستقرة بالرواسي فهي غير مهتزة ولا قلقة، هي حقيقة علمية نسبية، يرى بها

الإنسان نفسه بمشيئة الله ورحمته، أنه يتحرك بحواسه المطمئنة فوق الممتد الساكن والمنبسط أمامه من هذه الأرض، بما يصلح قرارًا لعيشه وسعيه وأمنه ولو أن هذا الإنسان رأى هذه الأرض – منذ كان إلى اليوم – كرة دائرة، يتسلق جوانبها وهي تسرع به راكضة في الفضاء. في حين تثقب أذنيه، وتروع قلبه، زلزلة هذه الانفجارات البركانية في باطن الأرض، والهيدروجينية في أعماق الشمس، إذا لم يكن الخالق الحكيم الرحيم قد ضبط قدرة سمعه، وامتداد رؤيته، حتى لا يبلغ إلى حواسه ما يروعه من تحت أقدامه، أو من فوق رأسه – فكيف كان من المحتمل أن يكون هذا الإنسان إنسانًا يعيش، ويأنس بمن معه، ويعمر لنفسه ولمن يجيئ من بعده؟.. كيف.. لو أنه وجد نفسه في غير هذه الحصانة من دلالات علم الرحمة به، يحاول تثبيت أقدامه على هذه القذيفة الكوكبية الوعرة، التي تدور به حول الشمس، في حين هما يدوران معًا، مع عدد كبير من الكواكب والشموس حول مركز ثابت في مجرة، تدور بدورها في نظام وإلى غاية مع عدد لا حصر له من المجرات!؟

يقول الله سبحانه بعد نعمته ببسط الأرض مذكرًا لهذا الإنسان بنعمته الأخرى في كروية الأرض وحركتها، ليمد بصره وسمعه وعقله إلى الغاية من حكم خلقه، وإلى الحياة الأخرى بعد موته:

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: 30].

ويقول سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: 5] ومعنى هذا أن الأرض لو كانت مبسوطة – في غير علم الرحمة بالإنسان – لسقطت أشعة الشمس عليها مرة واحدة في نهار واحد لا يطاق بغير ليل يسكن فيه، وينشط إلى نشور السعي من بعده.

ويقول سبحانه في حركة هذه الأرض: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النمل: 15].. وكيف تميد الأرض إن لم تكن تتحرك، بل وتسرع في الحركة!؟

ويقول سبحانه في دوران الأرض في فلك مع الشمس والقمر: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

ويقول سبحانه عن حركة الشمس وما حولها إلى مستقر لها بعد غاية بعيدة: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: 38].

كيف إذن بغير هذا التكامل بين طرفي الدنيوي والأخروي، والزائل والدائم، يتاح للإنسان – إلا في عالم الوهم الباطني، والتفلسف الظني، والتغالب الجدلي السفسطي، والبيات العقلي والفطري – أني يرى الله الحق، والبرهان عليه بعلم الدين الحق، ظاهرًا وجليًا وراء المرئي والمسموع بين آفاق هذا الخلق؟

الشافعي والمنهج العلمي:

على أن الوقت لم يطل بعد مشرق عصر الرسول، ونور القرآن، والأسوة الحسنة، حتى أشرق امتداداً من هذا النور عصر مواجهة الفلسفة التي تسربت من مظانها لتغزو فكر المسلمين السوي، ومنهجهم العقلي والعلمي السليم، وذلك حين ظهر الإمام الفقيه محمد بن إدريس الشافعي القرشي المولود سنة 150 هجرية، والمتوفى سنة 240، ليقنن ويسجل في «رسالته» أول الأسس لمنهج الأصوليين الذي يهدم بأصوله العلمية كل تجريدات ومتاهات المنطق الفلسفي الأرسطاليسي، مع الكشف عن هذه

المناقضة العقلية التي تسببت في هذا التناقض بين اليقين العلمي بالمنهج الإسلامي، وبين التيه الظني في المنطق اليوناني، وبذلك دبت حياة جديدة للعلم والصدق في حياة المسلمين باتجاه العالم، لتأكيد وحدتهم، وألفة قلوبهم وعقولهم، حول مصادر عقيدتهم الصحيحة في القرآن والسنة.

لقد بدأ الشافعي في رفض الفكر اليوناني الفلسفي لأنه يعتمد أساسًا على خصائص اللغة اليونانية، التي تختلف كثيرًا – وبالتناقض في الغايات الحيوية والسلوك الأخلاقي – مع خصائص اللغة العربية واتجاه معانيها الحيوي والأخلاقي، فكان لابد وأن يكون منهج التفكير الصادر عن إحداهما مخالفًا ومتعارضًا مع المنهج الصادر عن اللغة الأخرى.

وهكذا كان علم الأصول الذي أعاد الشافعي صياغته وتقنينه في منهج عام، هو الموقف الذي يتجاوز في منهج العقل العربي الإسلامي، عتبة الرفض للباطل الفلسفي اليوناني، وغيره، إلى الرحبة الواسعة التي تقوم على أرضها قواعد المنهج القرآني العلمي في التفكير، وهو المنهج الذي تعلمت منه أوروبا نفسها في فجر خروجها من ظلمات عصور جاهليتها الفلسفية التجريدية، الميتافيزيقية، لتتعلم منه طرق البحث التفصيلية، ومناهج العلم الدقيقة، ووسائل جمع المعرفة ببراهينها المحسة، وطرقها التجريبية، كما طلعت عليها الحضارة العربية الإسلامية بهذا الفجر، لتنهض أمام الإشعاع الباهر لهذه الحضارة العلمية والأخلاقية في كتبها العربية، وفي أخبارها وعلومها التي وصلت إليها عبر الأندلس، وقبرص، وجنوب إيطاليا، ومن ألمانيا وبولندا وانجلترا.

المنطق الأرسطي:

عاش الشافعي وهو يكتب ويعلم ويكشف عن زيغ المنطق الأرسطاليسي الفلسفي عن الواقع، ويهاجمه إلى حد التحريم، وهو يعلل

ذلك كما ذكرنا بهذا التناقض في التكوين اللغوي بين اللغة اليونانية في تراكيبها الغروية الجامدة وبين خصائص اللغة العربية الحية بإيقاعها واشتقاقاتها، مما يؤدي في حال تطبيق المنطق الفلسفي اليوناني على معاني واتجاهات وغايات اللغة العربية إلى الكثير من التناقض كما حدث فيما بعد.

يقول الدكتور علي سامي النشار في كتابه: «مناهج البحث عند مفكري الإسلام»:

«بدأ مزج المنطق الأرسطي بعلم الكلام والعلوم الإسلامية على العموم في أواخر القرن الخامس الهجري على أيدي المتأخرين من المتكلمين، غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذا المزج لم يحدث على يد مفكر من المعتزلة، بل بواسطة متكلم أهل السنة المشهور أبي حامد الغزالي»!

ثم يقول: «والعلة التي دفعت المتكلمين إلى عدم قبول المنطق الأرسطي هي أنهم لم يقبلوا ميتافيزيقا أرسطو فكان من البديهي ألا يقبلوا منهاج البحث الذي استندت إليه هذه الميتافيزيقا».

ثم يقول في نفس المصدر عن منهج الأصوليين كما قننه الشافعي:

«هو في الحقيقة منهج من مناهج البحث العلمي الذي وضعه الأصوليون لكي يسيروا عليه في أبحاثهم، وكانت أميز صفاته خلوه من مباحث الميتافيزيقا – أي مباحث ما وراء الطبيعة – التي جعلت فكر أرسطو هو علم الفكرة المجردة، وبذلك أصبح المنطق الأصولي منطقًا عمليًا يتفق مع الحاجة الإنسانية العملية، وينقسم إلى مبحثين: الأول مبحث الحد، والآخر مبحث الاستدلالات».

ثم يقول: «إن الأصوليين اعتبروا قياس الغائب على الشاهد موصلا إلى اليقين، بينما لا يفيد التمثيل الأرسطي إلا الظن»!

ثم يقول: «وهكذا استقام المنهج العلمي الإسلامي عند الأصوليين على نوع من الاستقراء العلمي على قانونين: الأول – لكل معلوم علة، والثاني قانون الاطراد في وقوع الحوادث».. أي أن تعميم الظواهر في وقوع الحوادث يجعل من اطرادها بغير استثناء قانونًا علميًا..».

وأخيرًا يمكن تلخيص أساس هذا المنهج الأصولي الإسلامي في قول الشافعي – الذي كان يعرف إلى العربية الفصحى لسان اليونان- : «ما جهل الناس واختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطو».. فكأن الشافعي هنا يكشف عن العلاقة العضوية بين اللغة ومنهج التفكير..

ويعلق السيوطي على قول الشافعي بمشاركته هذا الرأي حيث يقول – كما ورد من الاستشهاد به في كتاب الدكتور علي سامي النشار الذي ننقل عنه هذه الشواهد:

«إن فتنة خلق القرآن سببها الجهل بالعربية، وبالبلاغة الموضوعية فيها، من المعاني والبيان البديع، والجامع لجميع ذلك لسان العرب الجاري عليه نصوص القرآن والسنة».

أهلكتهم العجمة:

هذا البعد والتباعد من العرب عن لسانهم، مع تطاول العصور عليهم بمتغيرات الزمن، ومع تعاقب القصور عن رعاية لغتهم إذ هم في قبضة الضعف، وتفرق الكلمة.. هذا البعد عن اللغة الفصحى بالعجمة الطارئة على العرب، والناشئة من غير العرب – هو الذي اختلطت واستعجمت بسببه

المعاني والركائز الصحيحة لحقائق الإسلام، وتدبر القرآن، مما انتقضت بسببه أواصر الألفة على الحق، ووشائج الوحدة به، بين عامة المسلمين، حتى أصبحوا فرقًا وشيعًا، أقرب إلى الهوى وأدنى إلى الابتداع، مما أسلس قيادهم إلى هوى أنفسهم، وإلى عدوهم المستهين بهم من حولهم.

ولقد انتبه عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى بداية مخاطر العجمة والاستعجام على العرب من أهل الفصحى والتقوى في مطلع خروجهم بالإسلام وأسوته إلى الأمصار المحيطة بهم، والتي استعجمت مع أصولها العربية تحت الحكم الطويل للأكاسرة والقياصرة، فكان من أول ما كتبه من وصاياه إلى أمراء الأمصار عندما تولى أمر الخلافة بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذه الوصية التي يحذرهم فيها من خطر تسرب العجمة بلسانهم، ومنهج تفكيرها وسلوكها وابتداعها إلى ألسنة العرب، داعيًا إلى مواجهة هذا الخطر على المسلمين ودعوتهم قبل أن يعم، وذلك كما جاء في كتاب «تاريخ الأمم الإسلامية» للشيخ العالم محمد الحضري أستاذ التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية، في محاضرته عن حياة الخليفة الثالث عثمان:

قال عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابه إلى أمراء الأمصار:

«أما بعد فإنما بلغتم بالاقتداء والإتباع، فلا تلفتكم الدنيا عن أمركم، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم، تكامل النعم، وبلوغ أولادكم من السبايا، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الكفر في العجمة، فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا، أو ابتدعوا».

وهكذا عندما قرأ الأعراب القرآن والتزموا به، ابتدعوا برأيهم أن يفرضوا ما فهموه على الناس بقوة السيف، وليس كما أمر الله، وكما

كان عليه رسوله، من الدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن هذا الابتداع كانت فتنة الخوارج التي اهتز بها صرح المسلمين.

وعندما قرأ الأعاجم القرآن فاستبهم محكمه عليهم، وارتفع برهانه عن ألسنتهم، تكلفوا الفهم، فلما لم يطيقوه ابتدعوا، فكان التأويل والتعطيل، والظاهر والباطن.

ولقد ظل هذا الاستعجام بوجهيه بين العرب والأعاجم ينخر في أساس معتقدات المسلمين، ودعائم صرحهم الحضاري الإنساني، دون أن ينال الباطل بالعجمة من الحق بالفصحى، طالما بقيت في حكمة الله وحفظه حجة هذا القرآن الكريم، في نوره الخاتم الدائم، ولسانه العربي المبين. وطالما – كما نشهد على مر العصور بعد مشرق الإسلام في آفاق الجزيرة العربية – كتب الله النجاة لمن يتدبرون القرآن بلسانه، ومن يهتدون إلى صالح العمل والجهاد به، كما جعل الفرقة والتهلكة لمن تخلوا عن بيانه فاستعجموا، وابتدعوا، وفي هذا المعنى – كما جاء في حديث الرسول الكريم – يقرر الفقيه البار الحسن البصري، المتوفى سنة 110 هجرية قبل مولد الشافعي – عن مثل هؤلاء الهالكين قوله: «إنما أهلكتهم العجمة».. وهو مما أخرجه البخاري في تاريخه الكبير عن الحسن البصري.

الغزالي وابن عربي:

ودون أن نناقش آراء الغزالي، أو ابن عربي، سنكتفي بوضعهما تحت المظلة الواقية لهما من تحمل مسئولية الشطح في أقوالهما الغريبة في الدين، ومع تأكيد فاعلية هذه العوامل التي ساقتهما – ومن على شاكلتهما – نحو هذه الأخطاء والشطحات في تيه الابتداع العفوي، ونحو السراب الفلسفي، وهي عوامل العجمة الثلاثية الأبعاد: عجمة الانتماء.. والعجمة بالدراسة.. والعجمة في مناخ المجتمع الذي عاصروه.

أما عن الغزالي من جهة أثر الفلسفة والمنطق الأرسطي عليه فيقول عنه الفقيه أبو عبد الله المأزري: «قرأ الغزالي علم الفلسفة قبل استبحاره في علم الأصول، فأكسبته قراءة الفلسفة جراءة على المعاني. وتسهيلا للهجوم على الحقائق، لأن الفلاسفة تمر مع خواطرها، وليس لها حكم شرع يزعها، ولا تخاف من مخالفة أئمة تتبعها».

كذلك أشار المأزري إلى ضعف أكثر ما في كتاب (الإحياء» للغزالي من الأحاديث النبوية وقال في ذلك: «عادة المتورعين أن لا يقولوا: قال مالك، وقال الشافعي، فيما لم يثبت عندهم» ثم أشار المأزري إلى أن الغزالي كان يستحين أشياء فيبنها على ما لا حقيقة له.

أما من جهة أثر العجمة وضعف اللغة العربية في شتات أكثر الأعمال الفكرية في حياة الغزالي وكتبه، فقد ثبت أن معاصري الغزالي عابوا عليه أخطاءه اللغوية والنحوية، وأرجعوا ذلك إلى انتمائه الأعجمي الذي جعل من المشقة عليه أن يلم بدقائق اللغة والنحو. وقد كان الغزالي والموالون له يعرفون هذا القصور الظاهر في كتبه فدافعوا عنه بالدفاع الفلسفي الذي لا يحسنون سواه وهو قولهم إنه كان يحفل بالمعنى ولا يبالي باللفظ!

وهكذا – بغير علم – فصل محبوه بين اللفظ والمعنى، والعضو والوظيفة وهكذا بقيت فلسفة الغزالي على أنها شطحات، وإن برئ الغزالي على الأغلب من سوء القصد، أو افتعال القصور، في الوقت الذي ألهمته فطرته – دون أن يدري – أن يعيب تهافته بهذه الشطحات الفلسفية المستعجمة، فكتب وكأنما يدين نفسه، وشطحات عجمته – كتابه المعروف «تهافت الفلاسفة» الذي كان يرد به على شطحات فيلسوف آخر في أقصى الغرب هو «ابن رشد»..!!

كذلك فإن الغزالي، الذي عانى ولا شك من دوران الكثير من الآراء والمناهج المتناقضة في فكره، وفي كتبه، قد رد على نفسه مرة أخرى في كتابه الشهير «فضائح الباطنية» وقد أراد به كما جاء في مقدمة هذا الكتاب للدكتور عبد الرحمن بدوي: مواجهة استفحال الدعوى الباطنية، وتكاثر الدعاة الإسماعيلية إلى الفاطميين، وخطر ذلك على العقيدة الإسلامية، كما أنه أراد به بيان فضائل الخليفة العباسي المستظهر بالله، الذي كتب الغزالي هذا الكتاب بدعوة منه.

وأخيرًا – عن الغزالي المولود سنة 480 هجرية – فإن الدكتور محمود قاسم أستاذ الفلسفة والعميد السابق لدار العلوم يقدم هذا التصور عن «الحيرات الذهنية» في رأس الفيلسوف الفارسي أبو حامد الغزالي فيقول عنه في رسالة له عنه باسمه أصدرها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ما يأتي:

«أحيانًا نجد الغزالي محقرًا لشأن العقل، مفضلا للذوق الصوفي، وأحيانًا نراه يقسو في مهاجمة التقليد والمقلدين على اختلاف طوائفهم، أو يحتكم إلى العقل حتى في شدة حماسته لأهل التصوف، وقد نجده معرضًا عن الذوق الصوفي والعقل معًا ليمجد نوعًا خاصًا من التقليد..!!

وأما عن ابن عربي الذي برز بين طوفان الجماعات الباطنية – التي كشف الغزالي بعض أمرها – وهي تتدفق من المشرق إلى المغرب العربي، والذي لزم الباطنية في صباه تحت هذا العنوان المباح «التصوف» فإنه في تجواله غير المحدد ما بين أشبيلية التي تعلم بها، ومراكش وفارس، وتونس ومكة، وبغداد والموصل، وفي مصر أيضًا، لم يسلم من استنكار أكثر هذه الأمصار لهذه الجرأة – غير الواعية – على كتاب الله، وعلى ما زعمه من منهجه البالغ الابتداع والتهوس في تفسيره. وفي مصر اتهمه أهل السنة

بها بالزندقة، فلم يملك الحاكم الفاطمي – مع مشاركته في الهوى الباطني – إلا أن يحبسه فترة لإرضاء المصريين، ثم عاد فأطلق سراحه، حيث انتقل خلال هذا التجوال المريب العجيب – فيما بين القرن السادس الهجري وبداية القرن السابع – إلى قونية وأرمينية، ثم إلى دمشق حيث استقر به المقام..!

ونكتفي هنا دون التأثم بمتابعة هذا الشطح في مستغلقات «ابن عربي» الذي تنكر على ابتداعه الأعجمي بهذا الاسم العربي الذي لم يخدع به غير من هم في مثل قيود عقله، وأوزار خياله، واستعجام رؤيته – نكتفي بما أوجزه الدكتور محمود قاسم في كتابه «دراسات في الفلسفة الإسلامية» عن الرأي فيما زخرت به كتابات ابن عربي من فنون التعمية وأعراض الألغاز:

«وتمتاز كتابات ابن عربي بالألغاز والتعمية إلى أكبر حد، ومهما يكن من أمر الدوافع التي أملت عليه هذا الكتمان الشديد، فإن للمرء أن يتساءل: وما عسى أن ينتهي إليه الأمر إذا فتح باب التأويل للقرآن والكتب السماوية الأخرى على مصراعيه، بحيث يكون للتأويل تأويل، وهكذا دواليك، كما يشير ابن عربي في مواطن متفرقة من كتبه! وربما جال بخاطر المرء أن هذا التعليم «الإلهي» الذي اختص به الحق العارفين من عباده، قد يشعر بأن الوحي لم ينقطع بموت الرسول، بل لا يزال مستمرًا، وبأن الإلهام الصوفي لا يخضع لقاعدة دقيقة من الآيات الظاهرة التي لا تحتمل تأويلا. ومما يبرر هذا الخاطر أن ابن عربي يؤكد لنا أن كل آية من آيات الكتاب العزيز لها وجهان! أي أن القرآن بأسره هو موضوع للتأويل لدى أهل العرفان!!..».

الشتات الغنوصي:

وهكذا امتد الشتات بالعجمة في كل اتجاه، ومع كل سراب، بعيدًا عن الدين الحق، وعن منابع الحكمة في هذا الدين الحق وشرعته ومنهاجه. وبدأ مع هذا الشتات بروز هذه الأنصاب للعلوم السرية والفلسفية في الدين تحمل بأسمائها الغريبة عن الإسلام واللغة العربية، أقنعتها التي لا تكاد تخفي جذورها في الفلسفات اليونانية، واللغات الأوروبية، مثل كلمة «الصوفية» التي لا تزال تعني عند المتصوفة معناها في اللفظ اليوناني القديم وهو Theosophia وفي الإنجليزية المعاصرة وهو Theosophy، أي المعرفة السرية والخاصة التي يتم بها الكشف عن ذات الله، وشهوده، والحلول أو توهم الفناء فيه. وهذه الكلمة كما ترى مركبة من كلمتين: Theo بمعنى إلهي عندهم نسبة إلى زيوس، وSophy بمعنى: معارف سرية باطنية. ومن هاتين اللكلمتين المركبتين معًا يأتي معنى كلمة ثيوصوفي أو ثيوصوفيا وهو كما تشرحه المعاجم الإنجليزية المعاصرة والمعتمدة مثل معجم أوكسفورد أو ملخصه: أن هذه الثيوصوفية إنما تعني: أية فلسفات قديمة أو حديثة تزعم الوصول إلى العلم الإلهي – نسبة إلى «ثيو» وليس الله الحق – أو المعرفة الإلهية، سواء أكان ذلك بالاستغراق الباطني الروحي، أو بالشهود والتلقي المباشر، أو بوسائل اتصال ذاتية خاصة»!!

استشرى إذن مرض حب «الثيوصوفية» بين جماعات من المسلمين في عصور التخلف، أي حب «المعارف السرية باتجاه توهم شهود الإلاه» تحت اسم «الصوفية) أو «التصوف»، حتى أصبح هذا الاسم الشائع شعارًا للخارجين تحته بالقديم والمستحدث من الفلسفات عن جادة الفهم السليم، والصراط المستقيم، في طاعة الله الحق بهدى المحكم من كتابه الكريم.

ثم لم تلبث هذه الفلسفات الثيوصوفية أو «التصوفية» وهي تمزق بشتات فهمها، وغرائب شطحاتها، وحدة المسلمين في بداية اختلاط الأمر عليهم، وتسرب العجمة بظنونها وأهوائها إلى مشاعرهم ومدركاتهم – لم تلبث أن بلغت حدًا من التعقيد، والتركيب، والغموض، والخفاء، وتعدد الأهداف أصبحت فيه لونًا جديدًا من التطرف والاستهتار ضد جميع الأديان، وبخاصة ضد المسلمين والمسيحيين. وكان من الضروري لها أن تلمس لها شعارًا فلسفيًا لقبابها السوداء، داخل قلاعها السرية المغلقة، تنتسب به إلى جدودها الخرافيين من فلاسفة اليونان، وبلغة ورموز وثنية اليونان. فكان اختيارهم هو للكلمة اليونانية Gnosis الدالة في نفس عالم الشطح المنفصم عن الحق والحكمة والواقع الحي – على «المعرفة الروحية السرية» ومن هذه الكلمة أخذوا اسم مذهبهم البالغ أقصى حدود التطرف بمعارفه السرية الشذوذية المغلقة ضد جميع الأديان السماوية وهو «الغنوضية» أو Gnosticism.

وهكذا بدأت أخطر مراحل الفرقة في الرأي، والتطرف مع الهوى، والطمس للعلم، والتستر على تنظيمات التفلسف والانشقاق والابتداع، حيث بدأ ظهور القلاع السرية لهؤلاء الغنوصيين Gnostics على مشارف الحدود بين الوطن العربي وبلاد فارس والروم، في مدن مثل جنديسابور في فارس، ومثل نصيبين والرها والرقة شمالي العراق وسورية، وحيث بدأ مع ظهور هذه المدن في أسوأ عصور الانقسام بين المسلمين في نهايات العصر العباسي الفارسي – تغلغل هذا النشاط الخطر والسري لهؤلاء «الغنوصيين» في تخليق وقيادة المذاهب الباطنية كالإسماعيلية والقرامطة والإمامية

وغيرها، وبنفس النشاط عملوا على بث الفرقة والخلافات الهرطقية بين المسيحيين.. مستحلين ذلك وراء قناع الادعاء بأنهم «الغنوصيون».. هذا القناع الذي زعموا به أنهم «العارفون».. كما وصفوا أنفسهم بالصورة التي أغلقوها على كل ما يتناقض مع المعرفة والعلم.. وما لا يلتقي قط مع الحكمة والحق..!

الفصل الثالث

الحق والحكمة دعوة ومنهاج العقل العربي

فأين هذا من فلسفة ((العارفين)) وغنوصيتهم

العقل والحق:

في ضوء ما أوضحناه من قبل بالحجة والبرهان والشاهد من هذه الرابطة الإنسانية والعضوية والمعنوية والعلمية بين العقل والإيمان، نستكمل هذا الوضوح هنا بعرض هذه الرابطة المماثلة بين العقل العربي والحق، أي وإدراك الحق، وبين العقل العربي والحكمة، أي وبلوغ الحكمة والبلاغ عنها.. هذه الحكمة التي ظلموها، فزعموا أنها المقابل في العربية لكلمة «الفلسفة» في لغات الأوروبيين ومذاهبهم..!

في لغة العرب، وفي بين القرآن المبين، ما هو الحق.. وما هي الحكمة، حتى نرى كيف يمتد الفارق بينهما وبين الفلسفة إلى مثل ما بين الحياة والموت، وما بين النور والظلام.

الحق في اللغة العربي من أسماء الله تعالى. والحق القرآن. والحق ضد الباطل لأنه من عند الله، ولذلك فإن الحق يمضي بسلطان الله فوق كل العوائق والحجب وينتصر، بينما ينهار الباطل في كل مواجهة بينهما ويبطل.. كأن لم يكن.

والحق في اللغة العربية أيضًا هو الأمر المقضي، وهو الإسلام، والصدق والعدل. والحاقة هي النازلة التي تنزل وتقع على من حق ذلك عليهم بسبب مخالفتهم للحق، وتأكيدًا لما قضى الله به دائمًا من إزهاق الباطل.

والحق من معانيه كذلك اليقين. ومن ذلك فإن: تحقق تعني تيقن، وأحققت الأمر: أوجبته، وهو حقيق بهذا الأمر أي جدير به. والحقيقة ضد المجاز، والمحق ضد المبطل.

وأما هم شواهد هذه المعاني التي ترتبط كلها بالإيمان في رؤية العقل العربي وبيانه ودعوته فإننا نجد منها في القرآن الكريم ما يلي:

يأتي الحق في كتاب الله للدلالة على الله في قوله تعالى:

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ [يونس: 32].

وتأتي كلمة الحق بمعنى القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[يونس: 94].

وتأتي كلمة الحق بمعنى الإسلام والدعوة إليه في مثل قوله تعالى:

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ [التوبة: 29].

وتأتي كلمة الحق بمعنى الصدق في مثل قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة: 144].

وفي مثل قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [آل عمران: 3].

وتأتي كلمة الحق بمعنى الأمر المقضي من الله في مثل قوله تعالى:

﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: 118].

وتأتي كلمة الحق بمعنى اليقين الذي تتلاشى في نوره متاهات الفلسفات الظنية، ومذاهبها الوضعية، في مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [يونس: 36].

هذا عن الحق في لغة الدين الحق، والعلم والصدق.. أي في لغة العقل العربي، ورؤيته، ودعوته وإدراكه.. فماذا عن الحكمة كما يبلغ إليها هذا العقل الذي حمل بمشيئة الله أمانة الدين، فلم يشغله بها الزائل عن الباقي، ولا الدنيوي عن الأخروي..؟

العقل والحكمة:

عن هذه الرابطة الإنسانية والعضوية، والمعنوية، والعلمية، بين العقل العربي والحكمة، أي بينه وبين بلوغها والبلاغ عنها، بمثل ما رأينا من ارتباطه بالحق وإدراكه، ورؤيته، نقول إن «الحكمة» تعني من معاني الحق، والدين الحق، في هذه اللغة العربية لسان القرآن المبين، أنها: العدل والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن والإنجيل.

ومن حيث أن «الحلم» معناه في اللغة: العقل مع الأناة به، والرجحان له، فإن الحكمة ومن معانيها «الحلم» تصبح هي العقل في أفضل حالاته وأقربها إلى الحق والدين.

والحكمة أيضا هي الحق الدائم الذي لا ينسخ، وهي الحجة القاطعة بهذا الحق وفصل الخطاب فيه.

و«الحكم» بالمصطلح الديني هو سلطان العقل المؤمن، المانع من التوهم والفساد، والناهي عنهما، وبذلك فهو فيما وهبه الله لأنبيائه ورسله قد انتهى بهم إلى الصلاح والحق، والسداد والرشد، في نور العقل والحكمة، وهدى الحق والإيمان.

ونأتي إلى شواهد القرآن الكريم على هذه المعاني الدقيقة للحكمة في اللغة العربية، فنذكر من قول الله تعالى عن الحكمة ما جاء من دعاء إبراهيم وإسماعيل برسول من ذريتهما ينزل عليه الكتاب والحكمة فنزل القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 129].

ويقول سبحانه عن الحكمة بمعنى الإنجيل إلى المسيح عليه السلام:

﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 110].

ويقول سبحانه عن الحكمة بمعنى العدل وهو يذكر نعمته على داود في طاعته وإنابته له:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: 20].

ويقول سبحانه عن الحكمة بمعنى العلم والحكم وهما دلالتان على العقل في صحة الإيمان:

﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269].

ويقول أيضًا:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125].

الحكمة غير الفلسفه:

بهذا البيان الجلي نقطع بأن الحكمة التي هي توءم الحق بمفهوم الدين الحق ليست هي بأي وجه من وجوهها هذه الفلسفة في أي مذهب من مذاهبها، وفي أي عصر من عصورها، كما تطاول الزعم بذلك منذ وجده المنشقون عن الدين الحق على طريق السراب والتيه بعجمة ألسنتهم مسرحًا لظنونهم وأوهامهم وأهوائهم في هذا «التفلسف» بأشكاله، سواء بمعنى Philosophy أي حب المعرفة السرية، أو بمعنى Theosophy أي المعرفة اللاهوتية السرية، أو Gnosticism بمعنى «المعرفة الروحية السرية».

وسواء أكان التضليل أو الضلال عن الصواب في نسبة هذه المذاهب الفلسفية بأنواعها إلى ما يقابل معاني كلمة «الحكمة» في اللغة العربية، وفي بيان القرآن الكريم، مما يرجع إلى محاولة التستر على خطايا الفلسفة وأوزارها بين من اقتحموا بها حرم الفكر الإسلامي، أو كان لاعتقاد هؤلاء المتفلسفين باللسان العربي، في عتام عجمة المعاني في ألسنتهم، أن هذه الفلسفة برغم كل عيوبها ونقائصها وتناقضاتها هي عندهم: الحكمة.. والطريق إلى الحق والدين – فلقد ثبت – وسيظل ثابتًا – بشهادة التاريخ والواقع، أن التخلف قرين التفلسف، من حيث أن جميع المذاهب الفلسفية لم تحقق منذ اليونان الأوائل أدنى قدر من العدل الاجتماعي، والتكافل الاقتصادي، والأمن النفسي لمن انقسموا وتصارعوا وتظالموا تحت شعاراتها، وتمويهاتها، وعدواناتها، في غيبة الدين الحق، وانهيار مقوماته من اللغة والأخلاق ومنهج التفكير العلمي.

«الفلسفة الغنوسية» من الغنوسية ومعناها «المعرفة» واسمها مأخوذ من الكلمة اليونانية «جنوسس» وقد ميز (الغنوسيون» أنفسهم بهذا الاسم عن «المؤمنين»، وغالوا في رفع قيمة «المعرفة» والحط من قيمة (الإيمان». بأن وضعوا العقل فوق الإيمان، والفلسفة فوق الدين، وجعلوا الفكر الخالص رقيبا على الوحي، يستطيع أن يرفض منه بعض المعتقدات، وينكر المعجزات والأشياء الخارقة للطبيعة. واعتقدوا أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر: روح ونفس وجسد، وقسموا الناس بحسب العنصر السائد فيهم إلى ثلاث طبقات:

(أ) الروحيين وهم الغنوسيون الذين رفعتهم المعرفة إلى مستوى عال فوق المادة والحس، ويسودهم العنصر الإلهي..

(ب) الجسدانيين وهم العوام الخاضعون لتأثير المادة والحس..

(ج) النفسانيين وهم متوسطون بين الاثنين، يمكن أن ترفعهم المعرفة إلى درجة الغنوسيين الروحيين، ويمكن أن تنحدر بهم المادة إلى درجة الجسدانيين.

«وهكذا نرى أنهم حسبوا أنفسهم أرستقراطية عقلية قريبة من الله، وحطوا من قيمة المادة جسدًا واعتبروها شرًا، فسلك بعضهم طريقة صوفية تحاول السمو عن المادة والحس، كما انحدر بعضهم إلى الدعارة، زاعمين الانتصار على الحس بالانهماك فيه. وكان الغنوسيون في مصر من النوع الأول الناسك»..!! نقلا عن «تاريخ الحضارة المصرية» الجزء الثاني تأليف أمين الخولي وحسين مؤنس وغيرهما.

ونمضي قليلا في الاستدلال على تناقضات هذه الفلسفة الغنوصية السرية مع حقائق الدين الحق في القرآن والإنجيل والقرآن، وهي الفلسفة المدمرة التي انتهت إلى تقويض الدولة العباسية فلم تتركها بكل أوهامها وزعاماتها الفارسية ومخططاتها إلا حطاما تحت أقدام المغول – فنذكر من أنواع هذه الفلسفات السرية الهاذية فلسفة «إخوان الصفا»، الذين كان من روادهم الفيلسوف أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي اليهودي الأصل.

ونذكر من هؤلاء الغنوصيين من «إخوان الصفا» الذين ظهروا ما بين القرن الثالث الهجري والقرن الرابع – فيلسوفهم الشهير الفارابي الذي عاش في بلاط سيف الدولة في حلب، وهو من عائلة تركية مما وراء النهر، وقد تلقى علومه في بغداد في لحظات أفولها واحتضارها، ويرى الفارابي في واحدة من تناقضاته وهذياناته «أن القرآن صحيح... وأن الفلسفة صحيحة أيضا»!!

التناقضات الغنوصية مع الإسلام والمسيحية:

بمثل هذا التوهم في رفع الفلسفات من هاويتها المظلمة لتقابل «الحكمة» فوق قممها المنيرة، نشطت مزاعم الغنوصيين على أرض العرب والمسلمين في أشد العصور ظلامًا وتمزقًا، مستندين في ذلك التوهم إلى هذا اللبس اللغوي عند فرض مصطلحات اللغات الأوروبية على محكمات اللغة العربية الدينية.

ولقد رأينا فيما سبقت الإشارة إليه أن كلمة «المعرفة» في دلالة كلمات Sophos وPhilosophy وTheosophy لا تعني مقابلها في اللغة العربية من العلم الصادق المنشور والمتاح للجميع، وإنما تعني «العلوم السرية» بأشكالها المختلفة، ورموزها البعيدة عن الوضوح، والمتناقضة مع العلم، والموجهة ضد الحق والعدل. وكذلك فإنه بالنسبة لهذه «الغنوصية» التي عاش المسلمون أهوال الانقسام منذ دبت بينهم، وتسربت في خفائها إلى مواطن التأثير عليهم، والهدم لوحدتهم، فإنها تبدأ في اللغة اليونانية القديمة من كلمتين Yuis وGewise، ومنها كان تركيب هذه الكلمة اليونانية Gnosis والتي تعني في المعاجم وكتب الفلسفة: «المعرفة الروحية السرية» والتي تتفق مع مقابلتها في الإنجليزية والمأخوذة من نفس جذورها اليونانية وهي Wisdom من كلمة Wise، أي تتفق في دلالتها على «المعرفة الروحية السرية» بكل ما تعنين من خفاء وترصد وتناقض مع العقل أو الحكمة وإن أشاع مبتدعوها بين المسلمين أنها – كما يرونها بأعين الابتداع والضياع – هي عين العقل والحكمة.

والآن ماذا في باطن هذه الفلسفة الغنوصية، التي شنت حربها على الإسلام والمسيحية بمؤثرات فارسية ويونانية وصيهونية، من حصونها

وقلاعها السرية في مثل جنديسابور ونصيبين والرها والرقة على أطراف الأرض العربية الإسلامية..؟

لقد نقلنا من المجلد الثاني من كتاب «تاريخ الحضارة المصرية» الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي لنخبه من علماء التاريخ للعصر اليوناني والروماني والإسلامي في مصر – هذه الشهادة العلمية والتاريخية عن مفهوم واتجاهات هذه الفلسفة الغنوصية في حربها وتناقضاتها مع المسيحية، وقد جاء نص هذه الشهادة في الصفحة 234 من هذا الكتاب.

والفارابي بين المسلمين هو المؤسسي الظاهر لهذه الحركة الغنوصية الخطرة، التي استهدفت تحت هذا الاسم المتناقض مع أهدافها وهو «إخوان الصفا» أن تقضي على وحدة العرب، وأن تدمر مقومات الإسلام. ولا شك أنه قد استوعب تمامًا معنى الاسم الفارسي لمدينة بغداد كما اختاره لها الفرس من غير علم الخلفاء الأوائل للدولة العباسية وهو «باغ داد» و«باغ» معناها «الروح المقدس الذي يحل في الإمام العارف» عند الفرس، كما جاء في كتاب المستشرق أوليرى: «علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب».

ومن فلاسفة «إخوان الصفا» أيضًا ابن سينا الذي اشتهر بشطحاته غير العلمية عن النفس البشرية، وابن حيان الكيمائي الذي عاش في حلم عابد الذهب يعمل على استخراج معبوده عبثًا من التراب!!.

يقول أوليرى في كتابه السابق عن «إخوان الصفا» وهو يتناول تفسيرهم الباطني للقرآن الكريم:

«أما القرآن الكريم فيفسره إخوان الصفا تفسيرًا باطنيًا. وفي الرسائل التي كتبوها إشارات إلى الكتب المقدسة المسيحية واليهودية، وهي تفسر أيضًا تفسيرًا باطنيًا. وهذا النوع يدل على اتجاهات شيعية، أو لعلها إسماعيلية. ولكن اللغة التي كتبت بها الرسائل لغة معقدة وغامضة. وهذه الحركة الباطنية ترجع إلى أصول من الفكر سابقة للإسلام»!.

ثم يقول أوليرى في نفس كتابه عن فلسفتهم الغنوصية وعن رسائلهم:

«والمذهب الفلسفي لغالب هذه الرسائل هو مذهب تلفيقي. فالكون عندهم منبثق من الله، والروح الإنسانية من مصدر إلهي. وهي تجاهد للرجوع إلى الله وتتلاشى فيه، وهي النهاية التي تصل إليها عن طريق الحكمة، وهي «المعرفة» عند الكتاب الغنوصيين، والأفلاطونيين المحدثين».

وبعد.. فهذا قليل من كثير من أخبار هؤلاء الفلاسفة الغنوصيين، كما ظهروا بهذا النوع من «الحكمة الغنوصية» التلفيقية بمفهوم «المعارف السرية الهدامة»، والتعالي نحو هاوية الرمز وظلماته وتناقضاته في وجه كتب الله ورسالاته، والحق الذي نزل من عنده.. ومن هؤلاء الفلاسفة من عادوا إلى صداقة بعض فلاسفة هذا العصر، كهذه الصداقة التي جمعت بين الدكتور زكي نجيب وابن حيان الذي أصدر عنه كتابًا حاول أن يلتقي معه في حول مفهوم «الفلسفة الوضعية المنطقية» في مجال اللغة..!

ومع كل هذا الحفيف في الظل.. والرمز بالسر.. في تغنوص العارفين.. وتهجم المتفلسفين.. فإن سنن الله التي لا تتبدل تقضي بأن يحق الحق أبدًا.. وبأن يزهق الباطل كمدًا.. وهاهي ذي كل الدلالات والبشريات تعلن عن صحوة العرب والمسلمين المعاصرة، في مسيرة لا تتوقف نحو ألفتهم، ووحدتهم، وقوتهم، مع مشرق الإسلام الحق عليهم مرة أخرى، عائدين به إلى القرآن الكريم، ولسانه العربي المبين، ليكون في حياتهم اليومية هداية إلى العلم المثمر، والعمل الصالح، والقول الحق.. ونورًا من الله لايحتجبون معه عن جادة الطريق، ولا عن مسابقة العصر، ولا عن شرف الغاية .. إن شاء الله.

الفصل الرابع

والآن يا دعاة العرب للتفلسف

ماذا غير الحق تريدون وتنتظرون؟!

نعم والآن، ونحن بهذا الكتاب نخاطب العرب في صحوتهم نحو الألفة على الدين الحق، والجهد الصادق في سباق العصر، فوق كل العقبات، ونحو كل الآمال – نحسب أننا قد واجهنا بالحجة البالغة دعوة الداعين إلى «التفلسف» بين العرب، وباتجاه المذاهب الأوروبية في الشرق والغرب، وأننا برغم الإيجاز في الكلام عما يملكه الشعب العربي المؤمن في تراثه الحاضر بين يديه من اللغة والدين، والكتاب المبين، قد مررنا بأصنام الفلسفة المتعددة، وتماثيلها وأنصابها، وأشهر مذاهبها، لندمغها بتناقضها مع العلم، وشتاتها عن الواقع، وسرابها نحو الحقيقة، وأنها في شواهد التاريخ، وبشهادة أهلها في الماضي والحاضر، ليست هي الطريق إلى المعرفة الصحيح، ولا إلى اليقين المنشود، ولا إلى الصرح الاجتماعي المتكامل على دعائمه من العلم والعدل، والإخاء والسلام.

ولقد قدمنا في سبيل التأكيد على سلامة هذه المواجهة في حياة الأمة العربية المؤمنة المعاصرة بين العقل بمفهومه في لغة العرب وبين الفلسفة بتصوراتها وتجريداتها بين الأوروبيين، وهي هذه المواجهة التي ينهض بها الإيمان في مواجهة الإلحاد بكل صوره، وأشكاله، ومذاهبه – مثالا مما عانته الأمة العربية وهي تتمزق تحت أقدام أعدائها، بنفثات «معارفهم السرية» وشطحاتهم التفلسفية التلفيقية، على عهد فريق من «الغنوصيين» مثل «إخوان الصفا» الذين تجاوزا أقصى الشطط فيما نفثوه من سموم «معارفهم» الوهمية، وما ذلك إلا لنلقى الضوء الكاشف على عتام هذه الدعوة الظاهرة والباطنة إلى تفلسف العرب في هذا العصر، ابتداء من الطعن في قدرات «العقل العربي» ووصفه بكل نقائص العجز في مجال النظر والتفكير، وانتهاء إلى التمويه عليه بأن «الخلاص» الموعود له من قيوده الفكرية «التراثية والدينية واللغوية» هو في هذه «الشمس» الفلسفية

التي زعموا في وجه الواقع الحي بين السماوات والأرض منذ ملايين السنين.. أنها تشرق من الغرب..!!

إن التاريخ يحدثنا أنه بعد سقوط الدولة الأموية بسبب الترف والغفلة عن المقومات، والصراع حول الحكم الذي أصبح ملكًا بعد أن كان خلافة – قامت الدولة العباسية – بتعاون مع الشعوب غير العربية – أملا في تحقيق العدل المفقود، والإخاء المنشود، بين الحاكمين والمحكومين، كما هو أمر الله في كتابه المبين. ولكن الذي حدث، وكما جاء في كتاب عن أحد هؤلاء الفلاسفة من إخوان الصفا هو «ابن سينا.. بين الدين والفلسفة» والذي أصدره مجمع البحوث الإسلامية بجامعة الأزهر سنة 1392 هجرية وسنة 1972 ميلادية ما يأتي عن هذه الحقبة بعد الدولة الأموية، أي الحقبة التي ظهرت فيها تحت أعلام الدولة العباسية ووزرائها من الفرس وغيرهم أعراض التفلسف، والباطنية الغنوصية، وتناقضات المعارف السرية التلفيقية في أفكار وكتابات إخوان الصفا.. لقد جاء في هذا الكتاب من التفسير الصحيح لظهور إخوان الصفا ومن بينهم ابن سينا.. ما يأتي:

«في ذلك الوقت – وكان التفكير إلى ذلك الحين يكاد يكون عربيًا محضًا، أو بعبارة أخرى محليًا – ابتدأت الأجناس الأخرى تحاول في قوة أن ترفع رأسها من جديد، وأن تزج بثقافتها في ذلك التيار الفكري. وأخيرًا تم لها ما أرادت وسقطت دولة بني أمية سنة 132 هجرية وهي دولة العرب والعربية، واضطر العرب أن يتنازلوا عن السيادة، وأن يندفعوا في غمار الصناع والعامة، وأن يقبلوا على الجدل مع هذه الشعوب التي كانت تحمل بين قلوبها أشد الأحقاد عليهم، وابتدأت الثنوية من الفرس والسبئية التي أثارت الشك في «المعرفة»، وكثير غيرها من هذه الفرق، وكذلك

الدهرية التي لا تؤمن بخالق تعمل جميعًا على الكيد للإسلام وطمس معالمه، ولعها كانت تجد من الفرس المسلمين الذين سيطروا على الدولة في ذلك العهد إغضاء عن هذا الذي يريدون تحت ضغط الرغبة في الانتقام من العرب وانتقاص مكانتهم»!!

هذه الصورة التي تقدم مشهدًا من واقع ذلك العصر المنتكس، والتي تصور ما بدأ يصيب العرب فوق أرضهم العربية في العراق والشام، بعد أن غفلوا عن مقوماتهم، واتجهوا مع الترف المدمر إلى متابعة شهواتهم، والصراع على ما بقى في أيديهم، والعجز عن مواجهة خصومهم المتربصين بهم منذ أزالوا عن أرضيهم المستباحة، وعن وطنهم القديم، سلطان كسرى وقيصر – هذه الصورة التي تعددت الآراء والأقلام في عرضها وتفسير دلالاتها، بعد هذا السقوط المدوى للدولة العباسية، والأفول الأليم للحضارة العربية الإسلامية، وكما لا يزال المؤرخون في أنحاء العالم – عربًا وأوروبيين وشرقيين – يتابعون بالتحليل والتأويل هذه الصورة الحافلة بالعبر والعظات والحقائق – تذكرنا اليوم أمام مشهد المخاطر المروعة التي يتعرض لها المسلمون والعرب اليوم – بعد اجتياح القوات السوفيتية لأرض أفغانستان، وتنكيلها بشعبها المسلم – بحقيقة هذا الصراع الذي أصبح سافرًا بين الشرق والغرب، وبين القوى المدمرة للعملاقين، وبخاصة بعد تفاقم أزمة النفط وأكبر مصادره عند العرب – للقضاء على الشعوب الإسلامية والعربية. الواحد بعد الآخر، برغم هذه الصحوة التي قاربت بينهم في هذا العصر، وجمعت كلمتهم على شعارات الوحدة والتضامن، والإيمان والعلم، حتى ،وإن اختلفوا على مواقف ليس بينهم فيها خلاف جذري، ولن يلبث هذا الانقسام أن يزول باتجاه أفضل نحو المستقبل.

تغيير الجنسية:

والآن مرة أخرى.. وبعد أن مضى أكثر من عامين على ما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود في مجلة روز اليوسف عن رأيه في أن «العقل العربي يتدهور» وأن العلاج الذي يقترحه مع غيره من زملائه المتفلسفين هو أن «يتفلسف» هذا العربي برغم عقله، وأن يتبع بذلك فكر الغرب حتى وإن شقى هذا الغرب – شرقًا وغربًا – بتفلسفه.. الآن بدأ الدكتور زكي نجيب محمود يتراجع عن رأيه الأول خطوة وراء أخرى، بينما هو يداور في تراجعه جامعًا بين الحقائق والشبهات، وبين الإقبال والإدبار، أو بين هز الرأس عجبا.. أو أدبا.. أو تشددًا..!

ففي مقال ينشره بالأهرام بتاريخ 28 سبتمبر سنة 1979 تحت عنوان «العروبة ثقافة لا سياسة» نجده في دعوته إلى محاكاة الغرب في التفلسف معه، والسير بنظمه، يرى أنه لا بأس علينا من ذلك مادام الغرب ينشد «السعادة» لمجتمعاته ويحققها، حتى ولو «أخضعوا القيم الأخلاقية عندهم لمنطق العقل «النابع من الأرض» وليس «الهابط من السماء» ماداموا يقصدون منفعة الإنسان وسعادته».

وفي سياق هذا الكلام المداور المتشابه نجده يتبسط بتجاعيد فلسفته، ليقول في فلته علمية من بين غضون كلامه:

«لا.. ليست عروبة العربي قميصًا يلبسه إذا شاء، ويخلعه إذا شاء.. بل هي «خصائص» توشك أن تبلغ منه ما يبلغه لون الجلد والعينين.. فهي مجموعة من القيم والعادات، وطرائق النظر، يتداخل بعضها في بعض تداخل الخيوط في قطعة النسيج»..!!

ونسأل أنفسنا مستبشرين بقرب إنابة صديقنا الدكتور زكي نجيب محمود إلى الحق والصواب في قضية «العقل العربي» ومنهجه الفكري «الديني».. إننا نسأله، وبخاصة بعد أن تجاوز خط الحرج فأعلن توبته بعد هذا المقال عن كثير مما تهجم عليه من حقائق وركائز ومقومات التراث.. إننا نسأل أنفسنا: لماذا لا يمضي الدكتور زكي على هذا النهج العلمي في نظر هذه القضية التي تعثرت فيها من قبل فلسفته الوضعية المنطقية؟.. نعم.. لماذا – إذا كان يرى ما هو الحق من أن للإنسان العربي في مصر، وفي غير مصر، هذه «الخصائص» القومية والإنسانية التي تشكل سمات فكره، وحركة سلوكه، واتجاه إرادته، ومعالم اعتقاده، وغاية حياته.. لماذا لا يمضي بعربة أفكاره فيدرج بها – من غير تفلسف – على هذا الطريق الرحب المضيء، من حيث إن هذه الحقيقة التي أدركها آخر الأمر عن «خصائص» عروبة العربي، تنطبق تمامًا على هذه الخصائص المتنوعة بين البشر في يونانية اليوناني، وفرنسية الفرنسي، وأمريكية الأمريكي.. ومن حيث إنه حين يتكلم عن «الخصائص» في ثباتها، وفي مجال القدرة المتاحة لتنقيتها، وتنميتها، وتصحيح اتجاهها، تتفتح أمامه الطرق الصحيحة لكي يقول ما عنده في هذا المجال من الصحيح.. مجددًا.. أو مضيفًا.. أو مبتكرًا..؟!

أوليس من الحق العلمي الذي لا يجادل عالم فيه، سواء أكان من علماء العلوم الإنسانية، النفسية والاجتماعية، أو من علماء العلوم الطبيعية، الكونية الفلكية، وسواء أكان مؤمنًا أو ملحدًا، ويقينيًا أم متفلسفًا – أن خصائص كل شعب، وهي تتميز داخل الأجناس المختلفة، توشك أن تبلغ منه ما يبلغه لون الجلد والشعر والعينين؟..

أوليس من الثوابت العلمية، التي سبق للقرآن الكريم أو صحيح الحكمة المروية عن الرسول، أن كشفا عنها لتسير الحياة السليمة بالمسلمين على هداها، أن للبيئة الجغرافية والمناخية أثرها في تكوين «خصائص» الشعوب، كما أن للجينات، أي حاملات الصفات الوراثية في الإنسان والكائنات الحية، قدرتها من خلال التزاوج، واصطفاء الخصائص دون تهجينها، على تنمية خصائص الأفراد، وخصائص الشعوب، توجها بالفطرة نحو تحقيق هذا الاتساق الدائم بين خصائص الإنسان وبين بيئته ومناخه، وتراثه التاريخي وعصره..؟!

فإذا كان ذلك صحيحًا، وهو صحيح بكل ما تنبهت إليه العلوم الإنسانية الحديثة في العصر الحديث، فكيف نعمل إذن – تحت أي شعار – على أن نستنبت «الفلسفة» في أرض «الدين»، وأن ننشر سلوك الإباحيين – بحجة نقل ما عندهم من العلم والتكنولوجيا – إلى أرض الأخلاقيين المتطهرين، في حين أن العلم بكل أسراره وألوان تطبيقاته «محايد» بين البشر، يتنقل بينهم بغير انتماء يعوق حركته، أو يمنع سيادة القوانين المتكاملة فيه؟!

نعم.. كيف نعمل – مهما كان الإغراء والوهم – على أن يتحول الشعب العربي الديني المشمس الأسمر إلى شعب أوروبي فلسفي جليدي أبيض، بمجرد عمليات عدوانية – إغوائية أو قسرية – غير مجدية، وغير عملية.. بل كيف نتصور – حتى مع شطح الخيال – احتمال أن يفقد هذا الشعب العربي خصائصه التاريخية، القومية والإنسانية – ولو بالقسر – داخل زيجات طويلة مع شعوب أوروبية بيضاء، ليصبح في النهاية شعبًا أشقر الشعر، أبيض الجلد، أزرق العينين.. قد أمكن «تخليقه» معمليًا، وهو يرسف في القيود أجيالا طويلة.. متفلسفًا.. عدوانيًا.. مشتتًا.. قبل أن يعود مرة

أخرى إلى عقله.. ولغته.. ودينه!؟.. نعم.. بحجة العلم.. وليس بظنون الفلسفة.. كيف؟!!

مصر العربية:

ثم.. وبعد.. نصل من هذا الكتاب إلى الخطوة قبل الأخيرة، ونحن نواجه في حسابنا العقلي، وعتابنا العلمي، محاولات الدكتور زكي نجيب في دعوته، وهو يدعو أبناء وطنه المؤمنين إلى التفلسف الأوروبي، كيفما انتهى بهم هذا التفلسف.

إننا نسأله كيف ينسى.. ولماذا ينسى.. أن المصريين عرب.. كيف ينسى.. حتى وإن لم يكن له حظ من العلم الواسع بالتراث – بحسب اعترافه في كتبه – أن هؤلاء المصريين الذي ينتمي إليه، ويتحدث بكل حريته إليهم، هم عرب مؤمنون بالله والدين، منذ بجر حضاراتهم على هذا الوطن منذ أكثر من سبعة آلاف سنة.. وأن واجب كل العلماء أن يعملوا في هذا العصر – بعد أن فشلت كل القوى الاستعمارية والشيوعية والصهيونية في محاولات تنحيتهم عن «دين الوحي» و«أخلاق الشرع» و«منهج العقل المؤمن» – من أجل تنشيط صحوتهم، وتعزيز إفاقتهم إلى مقوماتهم، حتى يقيموا دولة «العلم والإيمان» على قواعدها الراسخة، والنامية، باتجاه الرخاء، والعدل، والسلام.

كيف ينسى الدكتور زكي نجيب محمود، المصري العربي، أن الحضارة العربية منذ ازدهرت في فجر التاريخ البشري في قلب هذا الوطن العربي، هي بكل مقوماتها وتوجهاتها «حضارة علمية دينية» تؤمن بالله، حتى مع بعض الغفلات عنه، وبعض الشرك به، كما كان ذلك واضحًا وجليًا في الحضارة المصرية القديمة، وحيث لا تزال تشهد الآثار والأخبار والكتب إلى اليوم أن أقدم الآلهة عند هؤلاء المصريين العرب القدماء كان

اسمه «فتاح» وهو من أسماء الله الحسنى، كما كان من أسماء آلهتهم «آمون» من الأمن والإيمان، و«رع» من الرعاية والحفظ.. فكيف وهم يستقيمون بعد ذلك على طريق الإيمان الخالص، والدين الحق، مع رسالات الرسل حتى ظهور القرآن الكريم، نطلب إليهم – وقد أحاط بهم أعداؤهم، وأعداء أشقائهم من العرب والمسلمين – أن «يتفلسفوا» بدلا من أن «يؤمنوا».. ويزدادوا إيمانًا.. وأن يضلوا بدلا من أن يهتدوا.. وأن «يرطنوا» بدلا من أن يبينوا..؟!

كيف؟.. كيف؟.. ثم كيف؟!؟.. أيها الفيلسوف العنيد.. الدكتور زكي نجيب محمود؟!؟

سورية والعراق:

وأخيرًا.. أخيرًا.. وفي هذه الملاحظة الأخيرة على دعوة «التفلسف» للدكتور زكي نجيب محمود، ونحن نمسح بيد النصح الخالص جهامة وجهه، ونزيل بإشراقة البرهان الزاجر تغضنات فكره، ومداورات تفلسفه – نضع صديقنا الفيلسوف وجهًا لوجه أمام مسئوليته الوطنية الكبرى، بينما نؤاخذه بهذه المسئولية أمام مواطنيه العرب في مصر وغير مصر، عما غاب عنه فكره من أن هذه الدعوة للتفلسف قد سبق إليها تحت القسر والإكراه شعبان شقيقان في أمتنا العربية هي سورية، والعراق، عندما اشترك أمشاج من المثقفين السوريين، المتعددي الانتماءات الطبقية، والمذهبية، والشيوعية، والاستعمارية، في إنشاء ذلك الحزب الفلسفي الأوروبي، المتقنع بقناع عربي على أهداف غير عربية.. أهداف علوية وتكريتية، ليس لمعالمها وضوح، ولا لمطامعها حد..!

إنه منذ سنة 1938، أي قبل إعلان ظهور هذا الحزب الفلسفي على قناع عربي سنة 1941، كان «زكي الأرسوزي» من غلاة العلويين، وهو

معلم حاصل على ليسانس الآداب من باريس، قد توصل إلى محور نظريته الفلسفية العلوية لصالح نحو 200.000 من العلويين في جبلهم بسورية، ولقهر نحو ثمانية ملايين من السوريين المسلمين، من طريق التطبيق العملي الشرس لهذه «النظرية» في شكل من أشكالها الغنوصية النشطة، والمدوية.. هذا المحور يقوم على قطبين متكاملين بمجرد التلفيق الفلسفي بينهما وهما:

1- إن عبقرية الأمة العربية في لسانها ولغتها، فهي إذن ليست في حاجة إلى عبقرية أخرى تحقق وحدتها وقوتها في العالم المعاصر مثل الإسلام الذي لم يكن بحضارته إلا أثرًا عابرًا من آثار هذه العبقرية العربية في اللغة واللسان..!

2- من أجل ذلك فإن التمسك بالدين، وبخاصة في هذا العصر المتميز بعلوم أوروبا و«فلسفاتها» يعتبر رجعية تجب مقاومتها، والقضاء عليها، في كل صور الحياة، وبكل الوسائل، مع فتح الطريق «للفلسفة الأوروبية» من كل اتجاه..!

ونتيجة لتطبيق هذه النظرية بعد الإعلان عن ظهور هذا الحزب «الفلسفي» الإلحادي في سنة 1941، وبعد أن تجمعت حول زكي الأرسوزي مجموعة من المغامرين والمفتونين مثل ميشيل عفلق، معلم، وليسانس تاريخ من باريس، وصلاح البيطار مدرس طبيعة بالتعليم الثانوي، ومثل عدنان الآتاسي دكتور حقوق، وأستاذ في الجامعة، وابن رئيس الجمهورية آنذاك هاشم الآتاسي، وكان عضوًا مع الأرسوزي في «عصبة العمل القومي» ومثال للمغامر المخلص لطبقته وأسرته، ومثل نظيم الموصلي دكتور في الجغرافيا ومعلم ثانوي، وصورة من صور الضياع والتمزق

الفكري لفئة من الشباب العرب داخل حركات شيوعية ترفع شعارات وطنية!!

وحتى نزيد الدكتور زكي وضوحًا لطبيعة هذا التطابق الغريب في المقدمة والنتيجة بين دعوته مع رفاقه في مصر إلى التفلسف الأوروبي، المستوجب بمفهوم الفلسفة الوضعية المنطقية وغيرها إلى طرح الدين، وبين الدعوة السابقة في سورية، ثم في العراق، لنشأة هذا الحزب العلوي الفلسفي الإلحادي على يد فلاسفته ومؤسسيه. فإننا نسجل هنا هذه الشهادة الصادقة لعالم سوري عاصر نشأة هذا الحزب، وعرف ما يجرى في ظواهره وبواطنه، وأعلن انتقاده للكثير من أوزاره، وهو العالم المؤرخ الأستاذ جلال السيد الذي نلخص هنا شهادته في فقرات ناطقة من حديثه المسهب عن حزب البعث في كتابه الموسوعي، والجدير بإطلاع كل عربي، وهو «حقيقة الأمة العربية وعوامل حفظها وتمزقها».. إنه في صفحة 383 من هذا الكتاب يقول:

«كان جمهور البعثيين من نوعية الكثرة التي تنتمي للشيوعية، أو قل إنها هي النوعية ذاتها. ولذلك كان بين الحزبين الشيوعي والبعثي النقاء، وكان بينهما ميدان مشترك، والفرق بين الحزبين يتجلى في أمرين لا ثالث لهما: أولهما – أن البعث فئة عربية قد شقت طريقها نحو هذه الغاية، ولم تلتفت إلى العراقيل التي تقيمها الأكثرية من الحزبين في هذا الطريق، بينما لا توجد مثل هذه الفئة في الحزب الشيوعي. وثانيهما – أن الشيوعيين كانوا في سلوكهم يستعملون «التقية» والتقية هي الاختفاء عندما يحيق الخطر، والظهور عندما يزول الخطر، بينما البعثيون لا يفعلون مثل هذا السلوك. ويتفرع عن هذا أن الغاية عند الشيوعيين تبرر الواسطة. والبعثيون لا يعترفون إلا أن الوسيلة جزء من الغاية، ويجب أن تكون شريعة

كالغاية نفسها. وهذا الوصف يصدق على البعثيين أول ما تأسس الحزب، ومن قبل أن ينغمس في معترك السياسة. لكنه قد غير هذه القواعد إلى حد كبير، وسرت إليه العدوى من الحزب الشيوعي من طول ما عمل الحزبان معًا، فتخلق الكثير من البعثيين بالأخلاق الشيوعية، وكان عدد كبير منهم كما أسلفنا من نوعية الشيوعيين، فسيطر هذا التيار على مجموعة السلوك الحزب، وأدخل الحزب في ميدان جديد، كما أنه خلق له مفاهيم جديدة، ومصطلحات جديدة، بحجة مراعاة الظروف، والحرص على الصالح العام. وعندما وصل إلى مستواه الجديد وجد نفسه على صعيد واحد مع حزب يشبهه في شعاراته اسمه «الحزب العربي الاشتراكي» فتداغما واندمجا في حزب واحد..».

ثم يقول من نشاط حزب البث بعد ابتلاع الأثر الشيوعي إلى إعلان فلسفته العلوية المماثلة نحو تهديم الدين:

«وإذا كان هذا الحزب البعثى يلتقي مع الشيوعيين في نزعة التهديم، فإن دوافع التهديم ليست واحدة عند الحزبين. لقد تعدت هذه النزعة المعترك السياسي إلى أمور خطيرة وجوهرية. إذ أن التهديم اتسع حتى شمل كل شيء، ففي نظر البعثيين لم يكن في العهود العربية القدية «بطل» يستحق الثناء إلا تجوزًا وتعصبًا، كما أن «الدين» عند بعضهم قد أصبح حدثًا تاريخيًا، وأن النقيد بتعاليمه ضرب من الرجعية، بينما «العلمانية» هي المذهب المفضل، لأنها تنبئ عن تفكير حديث وتقدمية ورقي في نظرهم. وكان الواعون في القيادة يتعرضون إلى الاتهام بالرجعية إذ بدر منهم أي توجيه نحو تقديس الماضي العربي الزاهي، لذلك سكت الكثير منهم على مضض خشية الاتهام. وكان هذا المظهر العلماني البعيد عن الاعتراف بالأمجاد الماضية على اختلاف أشكالها سببًا في نقمة عدد كبير

من الناس على حزب البعث، ومن هنا فتح الحزب جبهات كثيرة يحارب عليها..».

ثم يقول أيضًا عن تسخير الشيوعيين لهذا الحزب البعثي الفلسفي الإلحادي:

«وتصرفات حزب البعث كانت في جملتها انعكاسًا للإرادة الشيوعية.. ولهذا فإن الشعب برمته في القطر السوري، وفي سائر الأقطار العربية، قد وقف في واد كما وقف حزب البعث في واد آخر لا يقف فيه معه إلا الشيوعيون. ونجح الشيوعيون في هذا التدبير، وسخروا البعثيين للقيام بتنفيذ مآربهم، وعودوهم على الفتك الرهيب مما لا يتفق مع المزاج العربي، ولا يتلاءم مع طبيعته الإنسانية»!!

ثم يقول عن تأثير الأقلية العلوية على سياسة وأهداف وأوزار حزب البعث:

«ولما كان جمهور المنتسبين إلى هذا الحزب من الأقليات المذهبية الإسلامية، فإن فلسفة هذه المذاهب قد أصبحت غالبة على الحزب، وهي فلسفة استمدت من بعض المذاهب المتطرفة القديمة، ومن فلاسفة اليونان، ومن هذا أصبح حزب البعث كأنه بثرة في الجسم العربي، لأن مثل اتجاهاته غريبة عنه. وإذا شك العرب في سلامة الحزب سرى هذا الشك إلى جميع شعاراته. والشيء الأكيد هو أن هذه النقمة التي صبها العرب أخيرًا على البعث لم يكن سببها الأخطاء السياسية وحدها، ولكن السبب هو هذا التكوين الخاص المغاير لتكوين الأمة العربية العام»!!!

هذه هي بعض خبايا وخطايا حزب البعث الذي اعتنق التفلسف الأوروبي بجميع أشكاله، وأنكر الدين الحق في تراث الأمة العربية

ومصادرها الصحيحة بكل غاياته، كما يكتبها ويرويها للعرب، وللتاريخ، عالم سوري مسلم، كان بعثيًا يومًا ما بحسن النية تجاه الشعارات الخداعية الأولى لمؤسسي هذا الحزب، من الشيوعيين والعلويين، فلما تبين له أن البعث عدو وللحق، وللأصالة، والدين، وللعرب المؤمنين، المستبشرين بمستقبلهم ويوم وحدتهم على أرضهم وطن الإيمان والدين – تبرأ من هذا الحزب الفلسفي، وأعلن مخالفته له، ونبه العرب إلى بلائهم فيه.

أوليس من حقنا بعد هذا البيان، سواء ما ذكرناه مما نعلمه عن حقيقة النشأة الأولى لهذا الحزب على ركائز علوية وغير عربية، وفلسفية أوروبية وغير إسلامية، أو ما قدمناه من شهادة هذا العالم السوري الذي هاله ما تدهور إليه «التفلسف البعث الإلحادي» وراء ما سار وراءه من الانقياد للسلطان الشيوعي والاستعمار، من فرض هذا «التدهور» على «الفكر العربي» و«الواقع العربي»، ومن العمل الحثيث على تقويض كل مقومات الذات العربية، وكل دعائم بقائها، من الدين، واللغة، والتاريخ، ومسابقة العصر لتجاوز التخلف العلمي، والتحلل الأخلاقي، من أجل حاضر مشرق، ومستقبل موعود.ز أليس من حقنا أن نربأ بالدكتور المصري العربي زكي نجيب محمود أن يتطابق في دعوته إلى تفلسف العرب وراء مذاهب أوروبا – شرقًا أو غربًا – مع دعوة سمية زكي الأرسوزي، وها هي ذي ثمراتها الدامية فوق أرض الشعب السوري العربي الشقيق، لإخفاء في أهوالها ومصائر أهلها، وقد برزت برءوسها كطلع الشياطين، وأعراض الجنون..؟!

ثم أليس من حقنا أن نعتز بمصر العربية، المؤمنة بالإيمان، والعلم، والسلام لجميع البشر، فنعيذها بكل أصالتها ووعيها من مثل هذا المصير

للتفلسف الأوروبي على حساب التراث الديني واللغوي والقومي، وهي التي تخطت العديد والغريب من المؤامرات والغزوات والعقبات، خلال ألوف السنين، لتحافظ على ذاتها، ولون بشرتها، وطابعها المتجدد لخصائصها، وملكاتها، وغايات حضارتها، المعتصمة بالدين والعلم، والأصالة والتراث، والمعاصرة والتجدد، والوحدة الوطنية والسلام!

نعم.. إننا نعتز بمصر العربية المؤمنة، وفي مثل صحوتها هذه للإيمان والعلم، والتقدم والمعاصرة، عن أن تنتهي بمصيرها – تحت أي شعار للتفلسف – إلى مثل ما انتهى إليه هؤلاء البعثيون المتفلسفون والإلحاديون، وراء أقنعة عربية كاذبة.. وبعد أن اقترب حسابهم من شعوبهم على ما اقترفوه.. وتحدد مصيرهم بعد الذي أوغلوا فيه..!

ثم نكتفي بهذا القدر.. ولعل فيه هاديًا.. وبلاغًا.. إن شاء الله.. لصديقنا الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود.. ولجميع رفاقه.. ولمن لا يزاولون وراء شعارات «التفلسف» يداعبون أمانيهم ومواطنيهم بمثل دعابته التي عاد فأعلن عن بدء توبته عنها.. كما شرع في هذه التوبة وبدأها في مقال له بجريدة الأهرام بعنوان "قلم يتوب" بتاريخ 19 من المحرم 1400هـ و9 ديسمبر سنة 1979م.. والحمد لله رب العالمين.